العاطفـــة

وأثرها في التقدير الأدبي

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

لما وضع أرسطو مذهبه فى النقد الأدبى ، أقامه على المنطق والفكر ، واعتبر العقل وحده كلّ شىء فى إدراك الحقيقة الفنيّـة النافعة[1] ، يكشف ويوضح ، ويقيس ويضبط ، ويلتمس ويعلل ، ويقتبس من وراء ذلك كله إلى جملة من الضوابط والقوانين ، يراها صالحة فى كل زمان ومكان لقياس الفن ، وتقدير الأدب ، وفهم الجمال . فكأن النقد عند هذا الفيلسوف الخالد ، باب من الفلسفة ؛ وبحث فى العلم ، فهو يعالجه بالقياس الثابت ، والبيان المدرك ، والخبر المتواتر ، والشاهد البيّن ، فأما الحس فلا اعتبار له عنده ، ولكنه — كما يقول المعرى — زجر طير هى خليقة بالكذب ، فان صدقت فباتفاق ! !

هذا المذهب الذي وضعه أرسطو كان مثار خلاف بين النقاد من بعده ، وخصوصاً النقاد الفرنسيين الذى نهلوا من مراشف الثقافة الغاليّة ، فجماعة من ورائه يقولون العقل فحسب ! وجماعة يذهبون إلى أكثر من ذلك فيقولون : العقل والعاطفة . والذين قرأوا تاريخ الآداب الفرنسية يعرفون إلى أى حد كان النقاد فى الطور الأول يمجدون العقل ويذعنون لمنطقه ، حتى لقد حاول « ماليرب » أن يخضع له قرائح الشعراء وعواطفهم ، ثم أتى من بعده « بوالو » الذكى الفطن[2] فمنح العقل المرتبة الأولى فى عداد الصفات البشرية ، واعتبره مصدر كل أثر ذى شأن فى النقد والأدب . ولكن لما جاء «شاتوبريان» انتهج فى النقد نهجاً أحفل بالفن فقال : إن العقل وحده لاينتج أعمالا عظيمة ، وإن الناقد الحقيق من حكّم عقله وقلبه ، واستغلّ منطقه وعواطفه معاً فى فهم مايقرأ . فلما كان العهد الأخير قامت المناظرة حادة عنيفة بين فردينان برونتيير وأناتول فرانس حول الملكات المعتبرة فى النقد فقال برونتيير : العقل . . . ثم العقل . . . ثم العقل . وقال فرانس : كلا ! ! لايمكن أن يكون فن الأدب غير عاطفى ، وكذلك نقده . لأن الفن ذاته عاطفة ، وكاذبون هم أولئك النقاد الذين يزعمون أنهم قادرون على انتقاد الأدب وتقديره دون عواطفهم! وعندى أنه ليس أسخف من ناقد يتخذ مقاييس الألفاظ والأوزان فى نقد قطعة فنية نفخ فيها صاحبها من عواطفه ، واعتصرها من روحه وإحساسه ، فأن المشاكل الخفية فى الأدب والنقد لايحلها علم النحو والصرف ، ولاتشرحها المعاجم وأوضاع اللغة ، ولكنها فى حاجة إلى تلك العاطفة الملونة الفياضة التى لاتقيدها فواصل وحدود ، ولاتحدها أبعاد وتخوم ! !

والواقع أننا نستبد بعواطفنا كثيراً ونجحد الحق وما هو ثابت من نواميس الحياة إذ نندفع فى تيار أولئك الواقعيين فنعتبر العقل كل شىء فى تعليل كل ما نرى من المظاهر والظواهر ، حتى ما يتصل بميولنا وعواطفنا ؛ فأن هنالك القلب يجب أن نجعل له اعتباراً كبيراً في شئون الحياة إلى جانب العقل ، ويجب أن نعتقد بأن له منطقاً كمنطق العقل إن لم يكن أرهف وأدق ، وهو وحده الذى يشعرنا فى رحلة الحيـاة الشاقة ببرد الراحة ، ويقع من نفوسنا اللاغبة موقع الماء العذب من نفس الصادي فى البهماء القاحلة . ولا شك أننا لو طاوعنا هؤلاء الناس وجعلنا العقل كل شىء لصارت الحياة جحيماً لا تطاق، ولفررنا من شقائها كما يفر بعض الناس فى هـذه الأيام بالموت والانتحار ، بل ولتمردنا على كثير من النظم والأوضاع والشرائع الطيبة النافعة التى تكفل السعادة للمجتمع ، والتى لا يمكن أن يجحدها أولئك الواقعيون الماديون أنفسهم . وأنت — أبقاك الله — تأمل فى نفسك ، وانظر فيما يحف بك من النظم الاجتماعيـة ، والقيود الثقيلة التى تربطك بالمجتمع الذى تعيش فيه ، والسلاسل والأغلال التى تثقل جيدك وتنقض ظهرك ، من واجبات نحو الأسرة ، والأب ، والأم ، والزوجة ، والوطن ، والدين ، والتقاليد ، وفكرات الشرف والعرض ، وكل ما إلى ذلك ، ثم استسلم إلى العقل وحده وانزل على حكمه فى فهم تلك الأمور عامتها ، تجده يجيبك جواباً لا يرضاه العقل نفسه ، لأن الطبيعة قد خصت الانسان

---

(١) النافع والجميل : لفظان مترادفان عند سقراط ! !

(٢) هكذا وصفه بول فاليري . .

بشيء يمتلك ناصية عقله ويتحكم فيه التحكم كله ، شيء آت من الناحية الروحية القلبية التي هي مصدر العواطف والمشاعر [1] ، فالانسان — كما يقول العقاد — لا يحيا بالعقل وحده ، ولا يفهم بالعقل وحده ، ولكنه يحيا بالحياة التي هي مجموعة من الحس والغريزة والعطف والبداهة والخيال والتفكير . فأنت إذا أردت أن « تفهم » إنساناً فليست كل وسائلك إلى فهمه أن تسلط عليه ملكة التحليل والتعليل ، بل أنت مشترك في فهمه بخيالك وحسك وغريزتك وتفكيرك وعطفك وجميع أجزاء حياتك ، وشأنك في فهم الكون كشأنك في فهم الانسان أو فهم أي شيء من الأشياء وخاطرة من الخواطر . فقولك « تفهمها » مرادف لقولك تحسها وتتخيلها وتشملها بعطفك وبديهتك وتفكيرك . ولأن تحس ما ينبغي لك عمله دون أن تقوى على تعليل ذلك خير لك وألف خير من أن تعلل وتحلل وأنت عاجز عن العمل والاحساس [2]

وإذن فليس من الصواب أن تتخذ العقل وحده طريق إدراك وفهم ، وأداة تقدير وحكم ، وإنما الواجب أن نستخدم في ذلك جميع حواسنا وعواطفنا وكل ما لدينا من المواهب والملكات . وإذا كان هذا من اللازم بالنسبة لاعتبارات الحياة ومسائل العلم ، فانه لا شك ألزم بالنسبة لتقدير الأدب الذي هو فيض العواطف ، وذوب المشاعر ، ورسالة الروح ، ومن ثم تعلم سر الفشل الذي يحيق بأناس يحملون أنفسهم على معالجة الأدب ، ويبيحون لضمائرهم القضاء في مسائله وهم أجلاف غلاظ قد سلبوا كل إحساس وكل عاطفة . ولقد حكى العقاد فقال : كنا منذ أيام نتطارح قصيدة ابن الرومي في رثاء ولده « محمد » وهي القصيدة التي يقول فيها :

طواه الردى عني فأضحى مزاره بعيداً على قرب قريباً على بعد
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها وأخلفت الآمال ما كان من وعد
ألح عليه النزف حتى أحاله إلى صفرة الجادي عن حمرة الورد
وظل على الأيدي تساقط نفسه
ويذوي كما يذوي القضيب من الرند

إلى أن يقول :

وأولادنا مثل الجوارح أيها فقدناه كان الفاجع البين الفقد
لكل مكان لا يسد اختلاله مكان أخيه من جزوع ولا جلد
هل العين بعد السمع تكفي مكانه
أو السمع بعد العين يهدي كما يهدي
ثكلت سروري كله إذ ثكلته
وأصبحت في لذات عيشي أخا زهد

إلى أن يقول :

محمد ! ما شيء توهم سلوة
لقلبي ، إلا زاد قلبي من الوجد
أرى أخويك الباقيين كليهما
يكونان للأحزان أورى من الزند
إذا لعبا في ملعب لك لذعا
فؤادي بمثل النار عن غير ما قصد
فما فيهما لي سلوة بل حزازة
يهيجانها دوني وأشقى بها وحدي

فكنا نجمع على أنها خير ما قيل في الشعر العربي في رثاء ولد ، إلا رجلا لا بأس باطلاعه كان يقول : ولكن أحسن من هذا قول ابن نباته في رثاء ابنه :

قالوا فلان قد جفت أفكاره نظم القريض فما يكاد يجيبه
هيهات نظم الشعر منه بعدما سكن التراب وليده وحبيبه

وقوله فيه :

يا راحلاً من بعد ما أقبلت مخايل للخير مرجوة !
لم تكتمل حولاً وأورثتني ضعفاً « فلا حول ولا قوة »

وجعل يعجب من « وليده وحبيبه » التي فيها تورية بالبحتري وأبي تمام ! ويستظرف تورية « فلا حول ولا قوة » ويقول : إن في هذا المعنى لحسناً ! وقد استغرب العقاد ذلك الاستحسان من ذلك الرجل الذي « لا بأس باطلاعه » وعجب له كيف يرفع ابن نباته في شعوذته وألاعيبه على ابن الرومي في لوعته وأساه [1] ؛ وعندي أنه لا وجه للعجب والاستغراب ، لأن ذلك الرجل وإن كان « لا بأس باطلاعه » إلا أنه — على

(١) راجع ما كتبناه في الرسالة (٢٤٠) وكتاب بين الدين والعلم ترجمة اسماعيل مظهر

(٢) الساعات ص ٢٣٩

(١) راجع الساعات ص ٧١ و ٧٢

ما هو واضح من شأنه — لم يرزق الاحساس الفني ، والعاطفة الفياضة التي تفتح له آفاقاً من الفهم ، وتهيء له الأدراك والنظر في الأدب وما هو بسبيل الأدب من مظاهر الفن والجمال ، فليس من الغرابة أن يخطئ ذلك الرجل في التقدير الأدبي ، وأن يسف هذا الإسفاف البين في الحكم على الشعر ، ولكن من الغرابة أن يباح له النظر في الأدب ، والحكم على أقدار الأدباء ، ووضعهم فيما هو جدير بهم من المكانة الفنية ، وما هو من أهل ذلك ولا عنده أداته من الطبع والحس والعاطفة وبشاشة الروح . وكأن الجاحظ كان يقرر هذا المعنى إذ يقول : طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يعرف إلا غريبه ، فرجعت إلى الأخفش فألفيته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة فرأيته لا ينتقد إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات . وصدق أبو عثمان ، لأن أدباء الكتاب أدق إحساساً ، وأرق شعوراً ، وأرهف عاطفة ، فهم أقدر على اختراق معالم الوجدان والاحساس بجمال الآثار الفنية ، والصور الذهنية المرسومة ، فيكون بين الناقد والقائل تجاوب روحي ، وامتزاج في الأحاسيس ، وهذا هو طريق الادراك الصحيح ، والتقدير الحق ، وكأني به الطريق الذي ينشده الفنانون أنفسهم ، فقد طلب «بودلير» في الناقد أن يكون مرهف العاطفة ، دقيق الاحساس ، ينتقد بانفعال ، لأن الانفعال يقرب بين الأمزجة ويسمو بالمدارك وكذلك اشترط البحتري في نقد الشعر أن يكون من شاعر مارس الفن ، إذ سأله عبيد الله بن طاهر فقال : يا أبا عبادة ! مسلم أشعر أم أبو نواس ؟ فقال : بل أبو نواس لأنه يتصرف في كل طريق ، ويتنوع في كل مذهب ، إن شاء جد ، وإن شاء هزل ! ومسلم يلزم طريقاً واحداً لا يتعداه ، ويتحقق بمذهب لا يتخطاه . فقال له عبيد الله : إن أحمد بن يحيى ثعلباً لا يوافقك على هذا ! فقال : أيها الأمير ! ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ... وإنما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقه ! !

وإنها لنظرة بصيرة اتفق فيها الشاعران الفرنسي والعربي ، لأن الناقد فنان قبل كل شيء ، وإن التقدير الأدبي موهبة لا تتأتى ولا تستقيم كما يظن بعض الناس بدراسة النحو والصرف ، واللغة والغريب ، والتوفر على البحث في بطون الكتب ، فان هذا كله لا يجدي ولا ينفع إذا لم تكن ثمت فطرة سمحة ، ونفس مجلوة وطبيعة مواتية ، وعاطفة فياضة فنانة ، وإن العلم مهما بلغ مقداره لا يخدم في الفطن الجثة ، ولا يقوّم الشاعر الموجة . ويا ضيعة الأدب ، ويا خسارة الفن إذا ما جمدنا في تقديرهما على أوضاع أهل اللغة ، واعتبارات علماء البلاغة . ولعمرك إلى أي حد تفيد هذه الأشياء في التقدير الفني لقول الطغرائي مثلا يصف شجو حمامة شجوا تنوح وهو غريب بالعراق :

أبكية صدحت شجواً على فنن … فأشعلت ما خبا من نار أشجاني
ناحت وما فقدت إلفاً ولا فجعت … فذكرتني أوطاري وأوطاني
طليقة من إسار الهم ناعمة … أضحت تجدد وجد الموثق العاني
تشبهت بي في وجدي وفي طربي … هيهات ما نحن في الحالين سيان
ما في حشاها ولا في جفنها أثر … من نار قلبي ولا من ماء أجفاني
يا ربة البانة الغناء تحضنها … خضراء تلتف أغصانا بأغصان
إن كان نوحك إسعاداً لمغترب … ناء عن الأهل ممنوع بهجران
فقارضيني إذا ما اعتادني طرب … وجداً بوجد وسلواناً بسلوان
أو لا فقصرك حتى أستعين بمن … يعنيه شأني ويأسو كلم أحزاني
ما أنت مني ولا يعنيك ما أخذت … مني الهموم ولا تدرين ما شاني
كلي إلى الغيم إسعادي فان له … دمعاً كدمعي وإرناناً كإرناني

أو كقول ابن الجهم :

وارحمتا للغريب بالبلد النـ … ـازح ماذا بنفسه صنعا ؟
فارق أحبابه فما انتفعوا … بالعيش من بعده ولا انتفعا
يقول في نأيه وفي غربته : … عدل من الله كل ما صنعا !

أو لهذه القطعة التي نفث بها حافظ وقد عبر بدار كانت مدرجة لهوه ، وملعب شبابه ، فلما رآها قد غيرت معالمها الأيام حتى خفيت عليه جاشت نفسه بالشعر فقال :

كم مر بي فيك عيش لست أذكره … ومر بي فيك عيش لست أنساه
ودعت فيك بقايا ما علقت به … من الشباب وما ودعت ذكراه !
أهفو إليك على ما أقرحت كبدي … من التباريح أولاه وأخراه
لبسته ودموع العين طيعة … والنفس جياشة والقلب أواه
فكان عوني على وجد أكابده … ومر عيش على العلات ألقاه
إن خان ودي صديق كنت أصحبه … أو خان عهدي حبيب كنت أهواه
قد أرخص الدمع ينبوع الغناء به … والهفتي ونضوب العيش أغلاه
كم روح الدمع عن قلبي وكم غسلت … منه السوابق حزناً في حناياه
لم يدر ما يده حتى ترشفه … فم المشيب على رغمي فأفناه

قالوا : تحررت من قيد اللاح فعش
حراً فى الاسر ذل كنت تأباه
فقلت : يا ليته دامت صرامته ما كان أرفقه عندى وأحناه
بدلت منه بقيد لست أفلته وكيف أفلت قيداً صاغه الله ؟
أسرى الصبابة أحياء وإن جهدوا
أما المشيب فى الأموات أسراء !

فهذا شعر حى نابض ، يتفجر بالعواطف ، ويفيض بالأحاسيس حتى لتلمس فيه من ذلك أجساماً حية ... وإنه لنمط أعلى من الفن الخالد على الأيام ، الباقى على الدهر ، ولكن ترى ما ذا تكون قيمة هذا الشعر إذا ما وقف ناقد فى تقديره عند قواعد اللغة والنحو ، وتناوله بمقاييس « التورية والجناس ، والمقابلة والطباق » ؟ إنه لا شك ينحط به سافلا سافلا حتى الحضيض ، وإنه لا شك سيرتفع عليه عالياً عالياً بسفاسف الطبقة النازلة من أمثال ابن المنيبه والشاب الظريف كما رفع صاحب العقاد « ابن نباته بشعوذته وألاعيبه على ابن الرومى فى لوعته وأساه » ومن هنا تنقلب الأوضاع ، ويغدو النقد وهو أداة جمود بالأدب ، وخذلان للقرائح العبقرية . وعامل تقهقر يرجع بالفن إلى الوراء أضعاف ما يجب أن يندفع به إلى الأمام !

فالناقد الحقيقى هو من حكم عقله وقلبه كما يقول شاتوبريان واستغل منطقه وعواطفه فى تقدير ما يقرأ ، حتى يستطيع أن يقدر التقدير الصحيح ، وأن يخدم الحقيقة الفنية والجمال البيانى وإلا فهو فاشل فى مهمته ، يجنى على الفن ، ويبخس النبوغ ، ويكشف نفسه ويعرضها للسخرية ، وكأن العلماء قد أدركوا تلك الحقيقة إذ أنكروا على « المعلمين » والرواة أن يكون لهم فى نقد الشعر والحكم عليه ، فكثيراً ما تنادر الجاحظ عليهم من جراء ذلك حتى اتخذهم مادة لمبثه ومضاحيكه ؛ وكثيراً أيضاً ما نالهم الشعراء أنفسهم بقوارص الكلم ، وأليم الهجاء . ولعل من أفكه ما لهم فى ذلك قول عبيد الله بن عبد الرحمن الأهوازى فى معلم أزرى على شعره :

يعيب الأحمق المغرور شعرى وهجوى فى بلادته يسير !
ويزعم أنه نقاد شعرى
هو الحادى وليس له بعير

وفى هذا النمط ماروى من أن أبا جعفر الخزاز عاب شعراً للبحترى ، فكانت كبيرة على نفس البحترى حتى عدها إحدى نوائب الدهر إذ يقول:

الحمد لله على ما أرى من قدر الله الذى يجرى
ما كان ذا العالم من عالمى يوماً ولا ذا الدهر من دهرى
يعترض الحرمان فى مطلبى ويحكم الخزاز فى شعرى

وقد كان الخزاز كما وصفه ياقوت راوية مكثراً موصوفاً بالثقة أخذ عن أبى الحسن المدائنى والعتابى ، فما تحسب البحترى أنكر عليه النظر فى الأدب والحكم على شعره من جهة اطلاعه وعلمه، ولكنه لا شك أنكره عليه من جهة استعداده الفنى ، ورحابة عواطفه ، وسماحة طبعه . ولست أدرى ما ذا كان يقول أبو عبادة لو امتد به الأجل ورأى الأدب يحتمل الرهق من « خزازين » كثيرين يتولون دراسة الأدب فى مدارسنا المصرية وهم كجماعة المعلمين فى قرطبة الذين تحدث عنهم ابن شهيد فى قصة التوابع والزوابع ينحتون عن قلوب غليظة كقلوب البعران إلى فطن حمئة ، وأذهان صدئة ، لا منفذ لها من الرقة ولا مذهب لها فى شعاع البيان ، وكل بضاعتهم من الأدب كلمات من غريب اللغة ، وبعض مسائل من النحو والصرف وعلوم البلاغة لا يفهمون منها إلا ما يفهم الفرد البيانى من الرقص على الايقاع ، والرمز على الألحان . فهم يتنكبون النواحى العاطفية فى الأدب ، ويقفون فى تقديرهم عند الصور الجافة من الفن البيانى يقدمونها لتلاميذهم فيجد التلاميذ فى تناولها غضاضة دونها غضاضة المريض من تناول الدواء ، الأمر الذى ألقى فى روع أولئك المساكين أن الأدب العربى كله نمط واحد من الركاكة والجفوة والتشوفة والثقالة والثقل ، فانصرفوا عنه يطلبون متاعهم العقلى ولذتهم العاطفية فى رياض الآداب الغربية ، فاذا ما جلست إلى الواحد منهم وجدته من العلم بتلك الآداب بمكان ، على حين لا تجده من الأدب العربى على بال ، وتلك حال لو دامت فستكون الشر المستطير ، والخطر الكبير

محمد فريد عبد اللطيف